MERS
MIDDLE EAST RESEARCH AND STUDIES

Source : AN-NAHAR
Date : 6-2-98
Photo No. : 287

الساحة والدولة

بقلم سمير قصير

أخطر ما في قضية الشيخ صبحي الطفيلي انها جسدت ديمومة منطق "الساحة" في النظرة السورية الى لبنان، وان يكن هذا المنطق منحصرا في الاطراف البقاعية (بالاضافة الى الجنوبية). ظهر هذا التجسيد اولا طوال الاشهر التي عاشت فيها الحالة الطفيلية على هامش "الحالة الاسلامية" الممثلة بـ"حزب الله" والملتبسة اصلا حيال مؤسسات الدولة اللبنانية. ثم ظهر في قرار وضع حد لعصيان الشيخ الطفيلي.

فمهما تكن العوامل اللبنانية فاعلة، ومنها ما يتعلق بالتحولات التي يمر بها "حزب الله"، بدا جليا منذ عودة الطفيلي الى العمل السياسي المعلن، وفي منطقة قريبة من الحدود السورية، ان المعطى الخارجي ضاغط بقوة. واذا كان البعض اعتبر نشوء العصيان، وعلى اساس سياسة الشرذمة المنسوبة الى سوريا، وسيلة لاضعاف هذا الطرف او ذاك في السلطة القائمة، فان اقصاء الطفيلي من حلبة الصراع اعاد هذه الحركة الى نصابها الاقليمي الاوسع. ولا يهم في هذا المجال ان كان المراد من الخطوة الاخيرة اثبات قدرة سوريا على ضبط الوضع في لبنان في ظل معادلة اقليمية شديدة التموج ام اسداء خدمة للحكم الايراني الجديد في مسعاه الى الانفتاح على الولايات المتحدة.

لكن منطق الساحة قد يكون اقل خطورة مما قد يبدو للوهلة الاولى. فثمة بعد ايجابي في قضية الطفيلي، وتحديدا في الطريقة التي تعاملت معها سوريا، وهو ان الاداة التي تم اللجوء اليها هي اداة لبنانية وفوق كل شيء رسمية. وهذا يعني في المقام الاول عودة الى منطق الدولة، وان بغطاء سوري، الامر الذي لا يمكن الاستهانة به. فرغم ان بنود اتفاق الطائف المتعلقة بانسحاب الجيش السوري قد لفها النسيان، ورغم ان القرارات العليا لا تشترك فيها السلطة اللبنانية الا لتبلّغ العلم والخبر، يثلج الصدر ان تصبح الاولوية عند السوريين المرور بالقنوات الرسمية للدولة، حتى لو قفزوا فوق احدى حلقاتها.

وبهذا المعنى، يتضح ان خيار السلم الاهلي لا يلزم فقط المجتمع اللبناني بل ينظم ايضا سياسة الدولة "الحامية". ليس الامر بالتفصيل، خصوصا اذا تذكرنا نغمة العودة الى الحرب الاهلية التي يغنيها بين الفينة والاخرى بعض الذين يدعون القرب من سوريا. لا بد اذن من التوقف مليا امام الوسيلة المختارة لانهاء الحالة الطفيلية. فلو كان مسعى الشرذمة متحكما في السياسة السورية، لكان أمكن ان ينتهي الوضع في بعلبك الى اشتباكات اهلية، وبين اطراف ترتبط كلها بسوريا.

ويزيد من ايجابية اختيار الاداة ما ظهر من الجيش. اذ تأكد مرة اخرى انه بلغ درجة من البناء المؤسسي تتيح له ان يبلي بلاء حسنا في ادق الظروف، ودون ان يكون في حاجة لأن يشارك في السلطة السياسية المدنية، على عكس ما يطيب للبعض تصويره. ولعل في هذه القدرة ما من شأنه التخفيف من حدة الاجواء التي ستهيمن على الحملة الرئاسية ان استمر هؤلاء في مساعيهم لاقحام المؤسسة العسكرية في الصراع السياسي.

لا يعني اللجوء في نهاية المطاف الى منطق الدولة ان سوريا حسمت امرها حيال مصير الدولة "المحمية". بل يبقى الكثير حتى تقتنع سوريا بان المصلحة التي جعلتها تختار غلبة المؤسسات اللبنانية لحماية حسابات اقليمية خاصة بها هي التي يجب ان تدفعها الى الخيار نفسه عندما يأتي الامر الى حساباتها... اللبنانية، سواء تلك المتصلة ببناء الدولة او بصون "العلاقات المميزة" بعد تصحيح مسارها.

سمير قصير